كـــارل مـاركس

و

علـــم المجتمـــع

الدكتور

حسام الدين فياض

مدرس النظرية الاجتماعية المعاصرة

2017

الناشر
نحو علم اجتماع تنويري

لا أحد يمتلك الحقيقة إلا الله

اسم الدراسة: { كارل ماركس وعلم المجتمع }

التأليف: د. حسام الدين فياض – مدرس النظرية الاجتماعية الاجتماعية المعاصرة

الناشر: صفحة نحو علم اجتماع تنويري

الطبعة: الأولى

تاريخ : ٢٠١٧

https://www.facebook.com/profile.php?id=100013362274564

إهداء

إلى روح والدي الذي علمني معنى الرجولة الحقة

إلى كل باحث عن الحقيقة

إلى طلبة علم الاجتماع المخلصين

حسام الدين فياض

– المقدمة:

يمكن لنا القول أن المادية التاريخية والمادية الجدلية تلتصق أوثق الالتصاق بصاحبها ومبدعها " **كارل ماركس** ". وعلى العموم نعتقد أن الماركسية قد أثرت بشكل واضح على نشوء وتطور علم الاجتماع عامةً والنظرية الاجتماعية خاصةً، باعتبارها تقدم رؤية شاملة وناقدة للواقع الأوروبي وقت ظهورها.

كما يعتبر ماركس من أهم العلماء الأوائل الذين كان لهم الفضل في ظهور منظور الصراع الاجتماعي. فقد درس ماركس المجتمعات القديمة والمعاصرة بهدف توجيه مجرى التاريخ، وذهب إلى أن المتغير الاقتصادي يعد المصدر النهائي للسلوك الاجتماعي والنظم الاجتماعية. كما سعى ماركس إلى استخدام الدليل التاريخي لفهم المجتمعات المعاصرة التي تعتبر الغاية المركزية بالنسبة له. ومن أهم أدوات التحليل الماركسي مفهوم الطبقة الاجتماعية الذي كان له تأثيراً واضحاً في طروحاته، حيث يتجسد وجودياً بالطبقات الاجتماعية، التي تشكّل المجتمع والتاريخ والعملية الاجتماعية وآلية التغيير. وإن نقطة البدء المركزية في الطروحات الماركسية تتمثل في افتراض أن موقع الأفراد والجماعات من ملكية وسائل الإنتاج يحدد وضعهم الاجتماعي في المجتمع، فإما أن ينتمون إلى الطبقة المسيطرة أو الخاضعة، ومعادلة هذه الرؤية ذات بعد تاريخي لا يمكن تجاهله في النظرية الماركسية.

اهتم ماركس بالتعرف على التناقض والصراع بين الجماعات التي ترتبط بعلاقات مختلفة مع وسائل الإنتاج، وقد خلص ماركس إلى أن السيطرة على

وسائل الإنتاج يؤدي إلى اضطهاد بعض الجماعات واستغلالها للبعض الآخر، باعتبار أن قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج تمثل أساس الواقع الاجتماعي في البناء الاجتماعي الاقتصادي لمجتمع ما. وفي النهاية حاول ماركس بتطوير نظرية تتضمن سلسلة من المراحل (التشكيلة الاقتصادية – الاجتماعية) التي تمر بها المجتمعات المختلفة حتى تصل أخيراً إلى مرحلة اختفاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وهي المرحلة الاشتراكية (المجتمع الشيوعي) بفعل التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقاته. وفي هذا الدراسة سنحاول تسليط الضوء على العناصر التالية في محاولة متواضعة للإلمام بالفهم الماركسي لعلم المجتمع، وهي كالآتي:

١. ما هي الفلسفة الماركسية؟
٢. من هو كارل ماركس المفكر؟
٣. في علم المجتمع.
٤. التغيير الاجتماعي الماركسي.
٥. تصور ماركس لطبيعة المجتمع الجديد.

١- ما هي الماركسية؟

هي العلم الذي يقوم بدراسة قوانين تطور الطبيعة والمجتمع. هي نتاج نقد ماركس لمادية فيورباخ الساكنة وجدلية هيجل المثالية. تعتمد الماركسية بشكل عام على المادية كأساس ثابت في دراستها وتحليلها وتفسيرها للظواهر الطبيعية والاجتماعية.

في واقع الأمر تنقسم الفلسفة الماركسية عموماً إلى عدة أقسام رئيسية وهي كالآتي:

أ- **المادية الجدلية:** وهي ركن أساسي من أركان الفلسفة الماركسية تعتمد على قوانين الديالكتيك وتتلخص في اعتبار العالم مكون من مادة متحركة وهي في تطور وتجدد دائم ومستمر. وتؤمن بذلك بأسبقية المادة على الفكر.

ب- **المادية التاريخية:** هي العلم الذي يبحث عن القوانين العامة والقوى الدافعة لتطور وتغير المجتمع الإنساني. و لا يقتصر موضوع المادية التاريخية على دراسة تاريخ المجتمعات والشعوب وكيفية تطور نظمها الاجتماعية والاقتصادية التي ظهرت خلال فترات تاريخية معينة من تطور المجتمع الإنساني. ولكن أيضاً تشتمل – المادية التاريخية – على دراسة قوانين الحياة المعاصرة لمختلف الدول والنظم سواءً كانت رأسمالية أم اشتراكية أم نامية، ودراسة قوانين الحياة الاجتماعية والبشرية بصورة عامة.

ج- **الاشتراكية العلمية:** مجموعة أفكار وعقائد و رؤى ثورية تنادي بصورة حتمية بضرورة الإطاحة بالنظام الرأسمالي وإقامة مجتمع المساواة والعدل في

إطار أممي مرتكز على الملكية العامة لوسائل الإنتاج، وخالي من التمييز الطبقي والاجتماعي وذلك بالاستناد إلى التحليل العلمي للحركة الحقيقة للمجتمع الرأسمالي ولتناقضاته الداخلية التي ستقوده نحو حتفه، ولنضال الطبقة العاملة التي وحدها القادرة على تجاوز هذه التناقضات وبناء نظام آخر من العلاقات الاجتماعية وهو النظام الاشتراكي.

٢- من هو كارل ماركس المفكر؟

بالرغم من مضي أكثر من قرن من الزمان على وفاة **كارل ماركس*** فلا يزال فكره يشغل حيزاً من اهتمام الباحثين والمفكرين الذين ينتمون إلى أكثر من

* ولد ماركس في مدينة تريف *Treves* من منطقة الراين عام ١٨١٨ بروسيا، وكان أبوه **ابن حاخام ومحامياً** ثم أصبح مؤلفاً في الحقوق، تزوج من هنرييت بريسبورغ التي كانت ابنة حاخام أيضاً. اعتنق والد ماركس **البروتستانتية** لأسباب يرجح أنها **سياسية** أكثر منها دينية. وكان من أصدقائه فون- ويستون وهو بارون ريناني متزوج من نبيلة إيكوسية، فالوسط الذي عاش فيه ماركس فترة شبابه كان إذن وسطاً برجوازياً راقياً وثيق الصلة بالارستقراطية، وهو وسط ثقافي ونشاط فكري. وقد كان لوالده تأثير واضح على شخصيته، حيث نشَّأه على الحرية وحب المعرفة. وعندما أرسله إلى المدرسة الثانوية تلقى تعليمه على يد أساتذة ليبراليين، حيث كان موضع ثنائهم وتشجيعهم، وكان متفوقاً في الرياضيات والدراسات اللاهوتية. وفي عام ١٨٣٥ التحق ماركس بجامعة **بون** ودرس التاريخ واهتم بالإنسانيات. واندمج في النشاط الطلابي، ثم انتقل إلى جامعة **برلين** عام ١٨٣٦ وفيها التقى بفلسفة **هيجل** وبدأ يقرؤها ويلم بها. وفي عام ١٨٣٩ تعرف على صديقه الحميم في هذه الفترة وكان صحفياً يدعى **أدولف ريتنبرج** وكان من الهيجليين الراديكاليين، سجن بسبب أفكاره، وفي عام ١٨٤٢ انضم ماركس للشبيبة الهيجيلية والتحق بالعمل كمحرر بالجريدة " **الرينانية** " فساعده عمله بالصحافة على أن يتفتح على المجتمع ومشكلاته. وفي عام ١٨٤٣ وبعد زواجه قرر الهجرة إلى باريس. وكتب عن سبب هجرته من ألمانيا يقول: " إن الجو الخانق، لا يحتمل، ليس من اليسير على المرء أن يتذلل من أجل الحرية، لقد سئمت النفاق والغباء وفظاظة الموظفين الرسميين، وتعبت من طأطأة الرأس وابتكار العبارات التي لا خطر منها ولا ضرر من ورائها. إن ألمانيا لم يعد فيها ما استطيع أن أفعله، إن المرء لا يستطيع أن يكون غير أمين مع نفسه ". ومن خلال تنقله بين فرنسا وبلجيكا التقى بجوزيف برودون وفردريك انجلز، وشارك في النشاطات السياسية في ثورات الربيع الأوروبي (فرنسا) عام ١٨٤٨، وانتهى به المطاف في لندن حيث توفي في ١٤ مارس/ آذار ١٨٨٣. وبهذا التقى بأبرز المفكرين،

تخصص ولا يكاد يخلو مؤلف واحد اهتم بتاريخ النظرية إلا ووقف على ما كتب[1]. لأن ماركس يعتبر أحد أهم المنظرين الثوريين**، والفلاسفة الماديين النقديين تأثيراً في التاريخ الإنساني، فما تزال أفكاره حتى الآن تجتذب المثقفين في أماكن كثيرة من العالم على الرغم من تهاوي الكثير من الصروح السياسية والاقتصادية، التي قامت على هدي أطروحاته في القرن العشرين المنصرم[2].

شهد ماركس ظروف التصنيع المبكر في أوروبا وما نتج عنه من آثار سلبية على الطبقة العاملة، مما دفعه إلى الاهتمام بسرعة التخطيط لإحداث عملية التحول الاجتماعي، والإقرار بضرورتها، فنكب بجهد لا مثيل على دراسة وتفسير وتحليل ونقد العوامل، التي أدت إلى ظهور الرأسمالية والمبادئ، التي ارتكزت عليها للحفاظ على وجودها واستمرارها، وذلك بهدف القضاء عليها وتجاوزها إلى تشكيلة اقتصادية – اجتماعية ينتفي فيها استغلال الإنسان لأخيه

وبالهيجليين، وعمل بالصحافة، واشتغل بالسياسة. لمزيد من القراءة والإطلاع حول حياته وأعماله بالتفصيل انظر: عبد الباسط عبد المعطي: **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، مرجع سبق ذكره، ص(٦٧-٦٨).

- ***Encyclopedia Britannica Fact matter: Karl Marx.***
- http://www.***britannica***.com/EBchecked/topic/367265/Karl-Marx

[1] عبد الباسط عبد المعطي: **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع**، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، العدد: ٤٤، أغسطس (آب)، ١٩٨١، ص(٦٧).

** في هذا السياق أبدى ماركس اهتماماً خاص بالتاريخ أكثر منه بالسياسة، بالنتيجة، فإنه تجاهل كلية النيات الحقيقية لرجال الثورات وأساس الحرية، وركز اهتمامه حصراً على المسار الموضوعي للأحداث الثورية. لمزيد من القراءة والإطلاع انظر:

- Hannah Arendt: ***On Revolution***, Chapter II titled ***The Social Question***, Penguin Books, London. 1999, p.(61).

[2] سعد البازعي: **المكون اليهودي في الحضارة الغربية**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٧، ص(١٠٤).

الإنسان[٣]. بهذا نجد أن الفلسفة الماركسية شكلت مدخلاً ثورياً للتغيير الاجتماعي والتقدم الإنساني.

درس ماركس طبيعة هذا الاستغلال وحلله وتنبأ بالنتائج التي سيفضي إليها، فهذا الاستغلال قد اتخذ صور شتى عبر التاريخ، من اقتصاد المرحلة العبودية إلى الإقطاعية وأخيراً إلى الرأسمالية، حيث انقسم أفراد المجتمع فيها إلى ساد وعبيد ثم إلى إقطاعيين وفلاحين، وأخيراً برجوازيون وعمال. وفي كل ذلك كانت قوانين الاقتصاد السياسي هي التي تتحكم بوجود وتطور وفناء نظام اجتماعي – اقتصادي معين، ومجيء نظام أرقى منه[٤]. وينطلق ماركس في تفسيره لطروحاته من افتراض أن موقع الأفراد والجماعات من ملكية وسائل الإنتاج هو الذي يحدد وضعهم الاجتماعي في بناء القوة داخل المجتمع، فإما أن ينتمون إلى الطبقة المسيطرة أو الطبقة الخاضعة، ومعادلة القوة هذه ذات بُعد تاريخي لا يمكن تجاهله في النظرية الماركسية، لهذا أوضح ماركس في **البيان الشيوعي** ١٨٤٨، " **بأن كل التاريخ السابق لم يكن إلا تاريخ صراع طبقي** "[٥]. إن هذا الفهم للتاريخ، يصوره كتاريخ قوة تحركه صراعات القوى وتناقضاتها، التي تتمثل في الطبقات الاجتماعية، حيث كان يوجد دائماً طبقات

(٣) أحمد سليمان أبو زيد: **نظرية علم الاجتماع – رؤية نقدية راديكالية**، دار النيل للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ١٩٩٤، ص(١٠٣).
(٤) بندريش زلني: **منطق ماركس**، ترجمة: ثامر الصفار، مركز الأبحاث والدراسات الاشتراكية في العالم العربي، دمشق، ١٩٩٠، ص(٢١).
(٥) هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، ترجمة: عصام أمين، الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠٨، ص(٥٣).

تمتلك وطبقات لا تمتلك، وتبعاً لذلك طبقات حاكمة وطبقات محكومة. لذا فإن الأغلبية الساحقة من البشر حسب التصور الماركسي كانت تعمل بمشقة.

أما فيما يتعلق بالنظام الرأسمالي فيرى ماركس أن الديناميكية الداخلية لقوانين الاقتصاد السياسي لهذا النظام ستفضي لا محال إلى الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا، حيث ستؤول الأمور في مسارها المعقد إلى ثورة مجتمعية تحطم فيها البروليتاريا قيودها، وتسقط البرجوازية وتلغي الشروط المادية لأشكال استغلالها وفي مقدمتها (**الملكية الخاصة**)، ومع هذه الثورة التي ستكون حتمية ستحقق البروليتاريا سيادتها. " فماركس يؤمن بأن البروليتاريا وحدها فقط يمكن لها أن تسقط الرأسمالية، وتحرير نفسها، وكل الفئات المضطهدة في المجتمع. من كافة أشكال الاستغلال والاستعباد "[٦]. لهذا يعتبر ماركس أن تحقيق الكامل لإنسانية الإنسان، ولعملية انعتاقه من القوى الاجتماعية التي تقيده، غير منفصل عن عملية وعي وجود هذه القوى، وعن التغيير الاجتماعي الذي يتأسس على هذا الوعي. لأن الفلسفة الماركسية هي فلسفة احتجاج. احتجاج متشرب بالإيمان في الإنسان وبقدرته على تحرير ذاته، وتحقيق لطاقاته[٧].

تأسيساً على ما تقدم نستنتج أن ماركس يؤمن بأن قوى التغيير كامنة في المجتمع ذاته، وليست خارجة عنه، ويعود السبب في ذلك إلى ارتباطها

---

[6] Alex Callinicos: ***The Revolutionary Ideas of KARL Marx***, Bookmarks Publications Ltd, London and Sydney, Third reprint, 2004, p.(81).

[7] Erich Fromm: ***Marx's Concept of Man- Milestones of Thought,*** Translation by: T. B. Bottomore, Frederick Ungar Publishing CO. New York, 1961, p.(v).

بالأوضاع المادية داخل التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، فالصراع – وإن كان أمراً حيوياً لتخليص النظام من أزمته – فإنه لا يتم بمعزل عن الشروط الموضوعية التي تشكل عوامل الحركة الثورية[٨]. بهذا تشكل طبقة البروليتاريا حسب التعبير الماركسي القوى الاجتماعية (الثورية) التي سيوكل إليها تجسيد عملية التغيير الاجتماعي. باعتبارها قوى اجتماعية تعدها ظروف وجودها الاقتصادية لعملية التغيير وتعطيها الإمكانية والقوة للقيام بذلك. فبينما تتجزأ طبقة الرأسمالية وتتبعثر طبقة الفلاحين وجميع فئات الرأسمالية الصغيرة، توّحد البروليتاريا صفوفها وتنظمها. فالبروليتاريا بحكم دورها الاقتصادي في الإنتاج الضخم هي الطبقة الوحيدة لكي تكون زعيماً لجميع جماهير الشغيلة والمستثمَرين الذين تستثمرهم الرأسمالية وتظلمهم وتضغط عليهم في حالات كثيرة ضغطاً ليس بأضعف بل هو أشد من ضغطها على البروليتاريين، ولكنهم غير أهل للنضال المستقل في سبيل تحررهم.

أما عن المبررات التي دفعتنا إلى دراسة وتحليل النتاج الفكري لكارل ماركس وبالأخص فيما يتعلق بقضية البحث، فإننا نستطيع القول وبكل جدارة أنه بالرغم من مضي أكثر من مئة عام على وفاته (ماركس)، إلا أن أعماله الفكرية مازالت تنبض بالحياة حتى اليوم، وإن شئنا الدقة فهي تشكل المكون الأساسي المفاهيمي والنظري داخل نظرية الصراع، ويدرك كل إنسان عاش في القرن العشرين المنصرم كيف أن أفكار ماركس كان لها تأثير هائل على الممارسة

[٨] أحمد مجدي حجازي: **علم اجتماع الأزمة (تحليل نقدي للنظرية الاجتماعية في مرحلتي الحداثة وما بعد الحداثة)**، دار قباء للطاعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٨، ص(٧٠).

السياسية. حيث كانت الماركسية على صعيد الفكر والعقيدة والممارسة تشكل جسراً قوياً وحياً، واستطاعت أن تؤثر تأثيراً فعالاً في صياغة وتشكيل أقدار ومصير ملايين من الرجال والنساء(٩). هذا من جهة. ومن جهة أخرى، يعتبر ماركس أول من أدخل السياسة في علم الاقتصاد الجديد من أجل تحقيق الثورة الاجتماعية، فجعل بذلك الاقتصاد اقتصاداً سياسياً، أي اقتصاد يقوم على سلطة سياسية، ولذلك يمكن الإطاحة به بتنظيم سياسي ووسائل ثورية. بمعنى آخر إن ماركس يكون قد استنهض روح التمرد التي لا تنبع إلا من كونها منتهكة وليس من كونها واقعة تحت تأثير الضرورة، بذلك يكون ماركس قد ساعد في تحرير الفقراء عبر إقناعهم بأن الفقر ذاته هو ظاهرة سياسية وليس ظاهرة طبيعية وانه نتيجة العنف والانتهاك وليس نتيجة الشح(١٠). أي أن ماركس حوّل **المسألة الاجتماعية** إلى قوة سياسية موجودة في مصطلح " **الاستغلال** " أي الفكرة القائلة بأن الفقر هو نتيجةً للاستغلال من خلال الطبقة الحاكمة، التي تمتلك وسائل الإنتاج والعنف(١١). ويستشهد ماركس بالمجتمع الرأسمالي القائم في صميمه على الاستغلال(١٢).

تميز الفكر الماركسي باعتباره مرحلة قائمة بذاتها في تاريخ الفلسفة الاشتراكية، على الرغم من أنه اعتمد بشكل كبير على أفكار سابقيه من مفكري

(٩) مجموعة مؤلفين: **علم الاجتماع – الاتجاهات النظرية والاستراتيجيات البحثية**، ترجمة وتقديم: عبد الله شلبي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط١، ٢٠١٢، ص(١٤٥-١٤٦).

(10) Hannah Arendt: ***On Revolution***, op.cit, p.(63).

(11) Ibid, p.(62).

(١٢) محمد عبد الكريم الحوراني: **تأويل الاستغلال في نظرية علم الاجتماع – العناصر التكميلية لنظرية سوسيولوجية في الاستغلال**، مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ٢٠١٠-٢٠١١، ص(١٦).

الاشتراكية. إلا أن عبقريته تكمن في تنظميه للأفكار الشيوعية المشوشة، وإيجاد فلسفة ومنهج لتحقيقها على أرض الواقع الاجتماعي. حيث يعتبر ماركس أول مفكر اشتراكي أدرك أن وضع التفاصيل والجزئيات لدستور المدينة الفاضلة أقل أهمية من كشف الطريق المؤدي إلى هذه المدينة، وكيفية الوصول إلى هذا الطريق، وكان أول من أدرك أن اكتشاف هذا الطريق يتوقف على دراسة طبيعة المنطقة دراسة تحليلية(١٣).

*** أهم أعماله ومؤلفاته:**

١. نقد فلسفة الحق عند هيجل ١٨٤٤.
٢. مخطوطات عام ١٨٤٤ الاقتصادية الفلسفية (تأليف ١٨٤٤ النشر ١٩٣٢).
٣. حول المسألة اليهودية ١٨٤٤.
٤. العائلة المقدسة ١٨٤٥ بالاشتراك مع انجلز.
٥. أطروحات حول فيورباخ (تأليف ١٨٤٥ النشر ١٨٨٨)
٦. الإيديولوجية الألمانية بالاشتراك مع انجلز (تأليف ١٨٤٥/ ١٨٤٦ النشر ١٩٣٢).
٧. بؤس الفلسفة ١٨٤٧.
٨. البيان الشيوعي ١٨٤٨.
٩. الثورة والثورة المضادة في ألمانية (تأليف ١٨٤٨ النشر ١٨٩٦).

(١٣) هارولد لاسكي: **الشيوعية**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، مجموعة اخترنا لك (١١١)، بدون تاريخ، ص(١١).

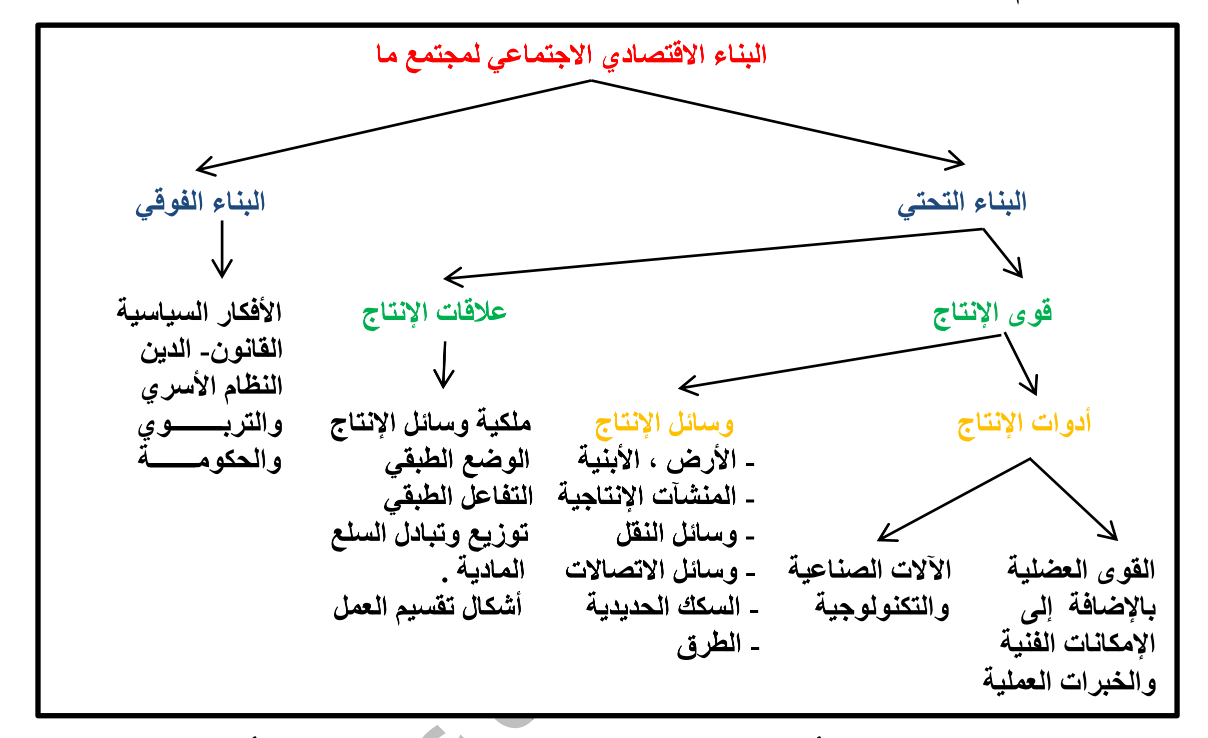
١٠. أجور العمل ورأس المال ١٨٤٩.
١١. الثامن عشر من برومير لويس ١٨٥٢.
١٢. مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي ١٨٥٩.
١٣. نظريات فائض القيمة ١٨٦٣.
١٤. رأس المال / أربعة مجلدات/ ١٨٦٧.
١٥. الحرب الأهلية في فرنسا ١٨٧١.
١٦. برنامج غوتا (تأليف ١٨٧٥ نشر ١٨٩١).
١٧. القيمة والسعر والربح ١٨٩٨.

٣- في علم المجتمع:

يعتمد ماركس في رؤيته للمجتمع على التفسير المادي للتاريخ الذي يتلخص في أن الأوضاع الاقتصادية للمجتمع هي الأساس الذي يؤثر في كافة الأوضاع والنظم الاجتماعية والفكرية الأخرى، بحيث تتطبع هذه الأوضاع والنظم بالصورة التي يقتضيها البناء الاقتصادي القائم. وعلى ذلك فإن علاقات الإنتاج ووسائله هي التي تحدد شكل المجتمع ونظامه، وبالتالي يكون لكل نظام إنتاجي، شكل معين للمجتمع يقابله ويختلف هذا الشكل باختلاف وسائل الإنتاج وطرقه[١٤]. بذلك يتلخص التصور المادي للتاريخ في أن البناء الاقتصادي

[١٤] محمد فتحي القرش: **العدالة والحرية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي- دراسة مقارنة**، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ٢٠١٢، ص(١٧٥).

للمجتمع هو الأساس الذي يفسر في التحليل الأخير، البناء الفوقي بما يتضمنه من نظم قانونية وسياسية وأفكار فلسفية ودينية خاصة بكل مرحلة محددة[١٥].



فالمجتمع حسب رأي ماركس مهما كانت مرحلته التاريخية أي (**التكوين الاقتصادي الاجتماعي**)* يعتمد على الأساس الاقتصادي، أي نمط الإنتاج الذي ينقسم بدوره إلى مكونين أساسيين هما: **قوى الإنتاج** التي تعني مجموعة الطاقات المادية والبشرية التي تتوظف في العملية الإنتاجية كوسائل العمل

(١٥) محمود عودة: **علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية**، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، ط١، ١٩٧٦، ص(١١٣).

* إحدى المقولات الأساسية التي تستخدمها المادية التاريخية لتحديد المرحلة التي يعيشها المجتمع في تطوره التاريخي. ويقصد بالتكوين الاقتصادي الاجتماعي، المرحلة التاريخية أو النموذج التاريخي المحدد لمجتمع ما (مجتمع له أسلوبه من الإنتاج وبنائه الفوقي المطابق). لمزيد من القراءة والاطلاع انظر: خضر زكريا: **نظريات سوسيولوجية**، دار الأهالي، دمشق، ط١، ١٩٩٨، ص(٧٣- ٧٨).

وأدوات الإنتاج (كالآلات والأجهزة والمباني، إضافةً إلى الطاقة البشرية بما تتمتع به من إمكانيات فنية وخبرة وعمل). أما المكون الثاني فهو **علاقات الإنتاج** التي تعني الارتباطات الأساسية التي يشغلها الناس بعضهم مع بعض من أجل تنفيذ النشاط الاقتصادي (ملكية الإنتاج، أوضاع الطبقات، التفاعل الطبقي، توزيع وتبادل السلع المادية)[١٦]. وترتبط قوى الإنتاج بعلاقات الإنتاج، فالأفراد خلال إنتاجهم الاجتماعي لا يؤثرون على الطبيعة فقط وإنما يتبادلون التأثير فيما بينهم من خلال التعاون والتبادل، أي أنهم يؤسسون علاقات فيما بينهم من خلال العمل، ولذلك فإن كلمة " **أسلوب الإنتاج** " تطلق على قوى الإنتاج وعلاقاته معاً.

تأسيساً على ما تقدم وفي ضوء **التفسير المادي** للمجتمع، يمكننا القول أن من أهم **معالم التحليل الماركسي** أن علاقات الإنتاج هي التي تحدد التقسيم الاجتماعي والتركيب الطبقي للمجتمع، وهذا البناء الطبقي يحدد بدوره طبيعة النظم القانونية والسياسية[١٧]. " أي أن مجموع علاقات الإنتاج هذه هي التي تشكل البنية الاقتصادية للمجتمع والقاعدة التي تقوم عليها البنية القانونية والسياسية التي تعكس بدورها أشكالاً محددة من الوعي الاجتماعي "[١٨]. بهذا تكون علاقات الإنتاج في المجتمع الطبقي ليست علاقات بين فرد وآخر، ولكنها بين المزارع والمالك، بين العامل والرأسمالي. ويؤمن ماركس أن هذه

---

[١٦] ياس خضير البياتي: **النظرية الاجتماعية – جذورها التاريخية وروادها**، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠١١، ص(١٥٥).
[١٧] محمود عودة: **علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٦).
[١٨] عبد الوهاب كيالي: **موسوعة السياسة**، الجزء:٥، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الجزء:٥، ط٢، ١٩٩٠، ص(٦٢٧).

العلاقات الطبقية القائمة على الاستغلال هي المفتاح الأساسي لفهم المجتمعات الطبقية[١٩].

تتبع علاقات الإنتاج تطور القوى الإنتاجية والعلاقة بينهما وقد تكون علاقة تطابق (العمل الفردي والملكية الفردية أو العمل الجماعي والملكية الجماعية) وقد تكون علاقة تناقض (العمل الجماعي والملكية الفردية). بمعنى أن علاقات الإنتاج قد تأخذ شكل التعاون والتعاضد أو شكل الاستغلال والسيطرة، حيث تتصل بكل أشكال التقسيم الاجتماعي للعمل ونظام الملكية وأشكال التوزيع والتبادل. إلا أن قوى الإنتاج أسرع في تطورها من علاقات الإنتاج التي تتميز بالثبات النسبي لكنها عرضة لتغيرات فجائية يتم بواسطتها تصفية شكل علاقات الإنتاج القائمة وإحلال أخرى محلها، وبذلك يتغير أسلوب (وهذا التغير لابد أن يصاحبه عمل ثوري من قبل الطبقات التي تكون علاقات الإنتاج في غير صالحها...) ومن هنا ندرك مرونة القانون الاجتماعي ونسبيته[٢٠].

إن قوى التغير الاجتماعي – حسب اعتقاد ماركس – كامنة في المجتمع ذاته، وهي ليست راجعة إلى عوامل خارجية كالعقل أو الفكرة المطلقة أو البيئة الجغرافية أو تزايد السكان أو التطور المزعوم للعقل أو الفكر، فالأفكار عند ماركس مرتبطة بأوضاع الحياة المادية وفي هذا الصدد يقول ماركس: " **ليس وعي الأفراد هو الذي يحدد وجودهم الاجتماعي، بل وجودهم الاجتماعي هو**

---

(19) Alex Callinicos: ***The Revolutionary Ideas of KARL Marx***, op.cit, p.(87).

(٢٠) محمود عودة: **علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٦).

الـــذي يحـــدد وعـــيهم "[21]. لـذلك فـإن الأفكـار الثوريـة – لعمليـة التحـول الاجتماعي– لا تظهر ولا تنتشر إلا في ظروف موضوعية مواتية، ونظام لم يعد يتمشى مع المرحلة الجديدة التي وصلت إليها الأوضاع المادية للمجتمع، كذلك فإن الجماهير هي التي تصنع التاريخ وتحقق التغير من خلال إنتاج السلع المادية وليس القادة أو الرجال العظام[22].

إن التطور الاجتماعي هو تطور أساليب الإنتاج التي تعاقبت على المجتمع الإنساني. حيث ينقسم المجتمع (الطبقي) في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي إلى طبقتين: طبقة تملك وسائل الإنتاج، وطبقة لا تملك شيئاً منها، وإنما تملك فقط قوة عملها أي قدرتها على بذل المجهود أي استخدام وسائل الإنتاج لزيادة معدله، ومن هنا ينشأ الصراع الطبقي الذي جعله ماركس سمة رئيسية لتاريخ المجتمع البشري في مراحل معينة من تطوره "[23]. بمعنى أن النقطة المركزية في الطروحات الماركسية تتمثل في افتراض أن موقع الأفراد والجماعات من ملكية وسائل الإنتاج يحدد وضعهم الاجتماعي في بناء القوة داخل المجتمع فإما ينتمون إلى الطبقة المسيطرة أو الطبقة الخاضعة، ومعادلة القوة هذه ذات بُعد تاريخي لا يمكن تجاهله في النظرية الماركسية[24].

---

[21] جورج بوليتزر وآخرون: **أصول الفلسفة الماركسية**، الجزء:٢، ترجمة: شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، بيروت،الجزء:٢، بدون تاريخ ، ص(١٨٩).

[22] محمود عودة: **علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٧).

[23] محمد فتحي القرش: **العدالة والحرية بين المفهوم الإسلامي والمفهوم الغربي- دراسة مقارنة**، مرجع سبق ذكره، ص(١٧٦).

[24] محمد عبد الكريم الحوراني: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع – التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع**، دار مجدلاوي، عمان، ط١، ٢٠٠٨، ص(٨٨).

يؤكد ماركس في البيان الشيوعي ١٨٤٨، أن الصراع بين الطبقات وجد في جميع مراحل التطور الاجتماعي، لأن نظام الإنتاج يوجد دائماً طبقة مستغَلة وطبقة مستغِلة، طبقة مأمورة وطبقة آمرة. فيقول: " **إنّ تاريخ أي مجتمع، ليس سوى تاريخ صراعات طبقية** "[٢٥]. والصراع – كما يرى ماركس – قد وجد منذ تلاشى نظام الملكية الجماعية للأرض، وقام استغلال الإنسان لأخيه الإنسان. فنظام الملكية الفردية قد فصم الجماعة إلى طبقتين طبقة من يملكون وطبقة من لا يملكون، وهاتان الطبقتان تتصارعان وتتنازعان، وهذا الصراع لا يهدأ إلى أن يقوض الجماعة بأكملها أو يهدم الطبقات المتصارعة، ثم تقوم جماعة جديدة تتصارع فيها طبقات جديدة إلى أن يقضي عليها هي الأخرى. لذا تعد نظرية الصراع الطبقي، وجهاً آخر للتصور المادي للمجتمع والتاريخ، لتفسير عوامل التغير الاجتماعي في المجتمعات الطبقية القائمة على الاستغلال. بذلك فإن الصراع عند ماركس " لا يحدث فجأة، بل بشكل متكرر "[٢٦]، كنتيجة حتمية لتعارض الأهداف والمصالح بين هاتين الطبقتين، حيث يؤدي في النهاية ومن خلال الثورة الاجتماعية إلى تغيير علاقات الإنتاج أو شكل الملكية السائدة، فالطبقة المستغِلة، لا يمكن أن تتنازل عن امتيازاتها الطبقية طواعيةً، " لأنها تحتل موقعاً متميزاً كطبقة مسيطرة "[٢٧]، لذا لابد من إجبارها من خلال الثورة

---

[٢٥] هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، مرجع سبق ذكره، ص(٥٣).
[٢٦] ياس خضير البياتي: **النظرية الاجتماعية – جذورها التاريخية وروادها**، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة، ٢٠١١، ص(١٥٦).
[٢٧] محمد عبد الكريم الحوراني: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع– التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع**، مرجع سبق ذكره، ص(٨٩).

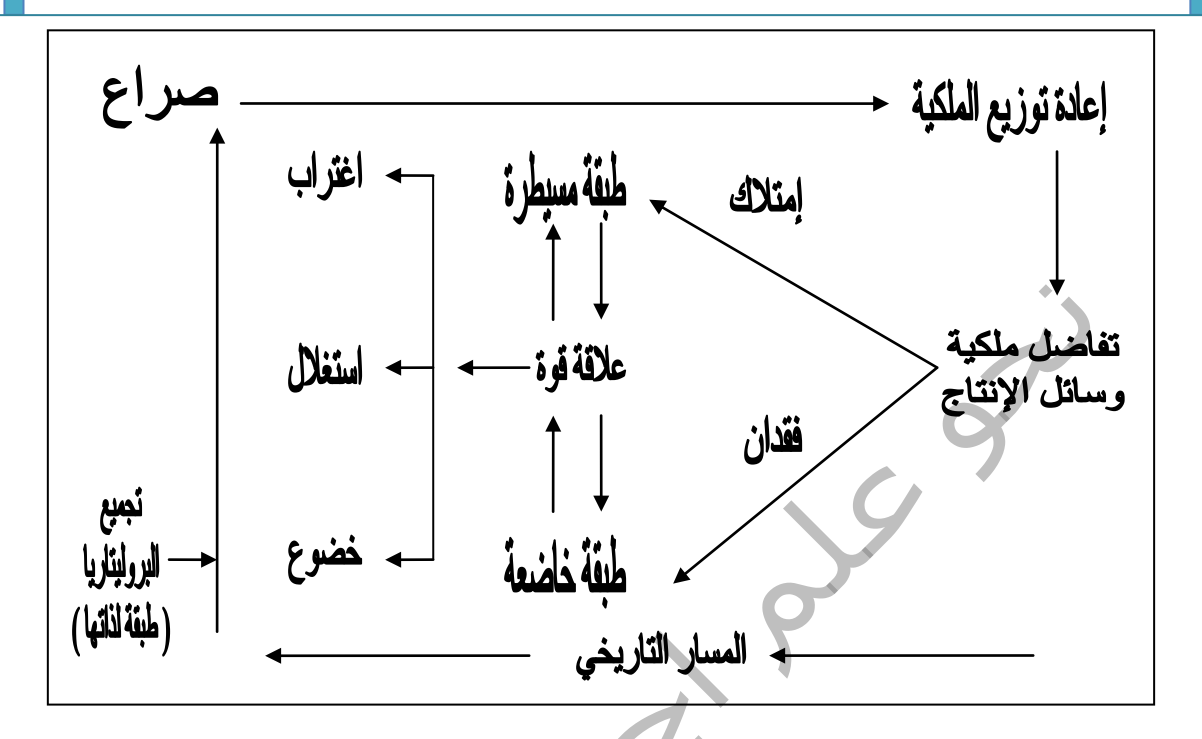
الاجتماعية – حسب رأي ماركس – حتمياً. تأسيساً على ما تقدم يمكننا اعتبار الصراع الطبقي وما يؤدي إليه من ثورات اجتماعية المحرك الأساسي للتغير الاجتماعي في جميع المجتمعات الطبقية حتى يتم الانتقال إلى مجتمع بلا طبقات، وتاريخ كل مجتمع – كما ذكرنا سابقاً – ليس سوى تاريخ صراع الطبقات، (الأحرار والعبيد، النبلاء والعامة، السيد الإقطاعي والقن، البرجوازي مالك وسائل الإنتاج والعامل)، باختصار المستغلون والمستغلين في تعارض دائم، وتصارع مستمر، يتخذ شكلاً سافراً في بعض الأحيان، ومقنعاً في أحيان أخرى، وينتهي الأمر دائماً إما بتغيير ثوري للمجتمع بأسره أو بانهيار الطبقتين المتصارعتين معاً[٢٨].

ويلخص لنا الشكل التوضيحي التالي المنطلق النظري الذي اعتمد عليه ماركس في تحليله وتفسيره لآلية التغير الاجتماعي. من خلال مايلي:

شكل توضيحي[٢٩]

يبين آلية حدوث التغير الاجتماعي حسب التفسير المادي للتاريخ عند ماركس

[٢٨] محمود عودة: **علم الاجتماع بين الرومانسية والراديكالية**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٧-١١٨).
[٢٩] محمد عبد الكريم الحوراني: **النظرية المعاصرة في علم الاجتماع– التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفية والصراع**، مرجع سبق ذكره، ص(٩٤).



تأسيساً على ما تقدم قسّم ماركس المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين: **الأولى** طبقة البرجوازية طبقة الرأسماليين المعاصرين، مالكي وسائل الإنتاج الاجتماعي الذين يستخدمون العمل المأجور. **الثانية** البروليتاريا طبقة العمال الأجراء المعاصرين الذين لا يملكون أية وسائل إنتاج، و " الذين لا يعيشون إلا إذا وجدوا عملاً. ولا يجدون عملاً إلا إذا كان عملهم ينمي رأس المال "[٣٠]. بذلك يرى ماركس من خلال هذا التقسيم أن النظام الرأسمالي يشتمل في داخله على

(٣٠) هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، مرجع سبق ذكره، ص(٦٦).

بذور فنائه[٣١]، لأنه أوجد طبقة ثانية تعارضت مصالحها مع مصالح الطبقة البرجوازية وهي طبقة البروليتاريا.

كما تتميز هذه المرحلة – بالإضافة إلى وجود طبقتين متعارضتين – بتعدد النشاط الاقتصادي وتنوعه وبالتطور التكنولوجي في وسائل الإنتاج[٣٢]. وعلى الرغم من أن العامل قد تحرر في ظل الرأسمالية بمعنى أنه كان يعمل متى يشاء وأينما شاء، على عكس أسلوب الإنتاج الإقطاعي الذي عمل على تحديد حرية العامل (الأجير)[٣٣]، إلا أنه في ظل أسلوب الإنتاج الرأسمالي مضطراً لبيع عمله للرأسمالي لأنه – كما أشرنا سابقاً – لا يملك وسائل الإنتاج. بالمقابل نجد الرأسمالي المالك لوسائل الإنتاج يستمر في تحسين وسائل الإنتاج للحصول على مزيد من الربح أي فائض القيمة (القيمة الزائدة)، وهذا يعني أن علاقات الإنتاج في النظام الرأسمالي القائمة على مبدأ الملكية الخاصة قد أدت إلى ظهور الربح الرأسمالي، فعندما يزداد نمو القوى الإنتاجية تصبح علاقات الإنتاج متخلفة عنها بحيث تكون معوقة لتطورها. في هذا السياق يرى ماركس أن وفرة الإنتاج الرأسمالي بسبب التقدم الذي طرأ على أساليبه ستؤدي إلى انهياره بسبب ما يحدث فيه من أزمات دورية، فهو كالساحر الذي أطلقت

(٣١) فيليب جونز: **النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية**، ترجمة: محمد ياسر الخواجة، مصر العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠١٠، ص(٩٥).
(٣٢) حورية توفيق مجاهد: **الفكر السياسي من أفلاطون إلى محمد عبده**، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٦، ص(٤٨٠).
(٣٣) علي عبد الرازق جلبي: **الاتجاهات الأساسية في نظرية علم الاجتماع**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠١١، ص(١١٠).

تعاويذه السحرية قوى جبارة يعجز عن السيطرة عليها فتقضي عليه[٣٤]. " لأن البرجوازية لا تستطيع البقاء دون أن تُثوَّر باستمرار أدوات الإنتاج "[٣٥]. مما يؤدي إلى عدم قدرة علاقات الإنتاج على مسايرة التقدم التقني في وسائل الإنتاج، فيترتب على ذلك عدم امتداد نتائج هذا التقدم التقني إلى من يعملون بجهدهم البشري لإنتاج تلك الأدوات، وكذلك في عملية الإنتاج ذاتها. بمعنى آخر يمكن لنا صياغة هذا القانون على النحو التالي: " إن التغيرات في القوى الإنتاجية لابد أن تستدعي، عاجلاً أم آجلاً، تغيرات مناسبة في علاقات، وعلاقات الإنتاج بدورها تؤثر في القوى الإنتاجية فتساعد على تطويرها إذا كان ملائمة لها، وتصبح كابحاً لها إذا دخلت في تناقض معها. فقانون الملائمة عند ماركس يعبّر عن ديالكتيك قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج الجاري على أساس تطور قوى الإنتاج "[٣٦].

وبشكل عام يعتقد ماركس أن تغيير البناء الاجتماعي، ودخول المجتمع في مرحلة حضارية تاريخية يعود إلى التغيير في البناء المادي لسبب أو لآخر. وهذا من شأنه أن يؤثر على البناء الفوقي، أي بعبارة أخرى إن الجوانب المادية هي التي تؤثر على الأفكار والقيم والعادات والقوانين والأعراف الاجتماعية، ومع ذلك لا يلغي ماركس العوامل الفكرية تماماً، وإنما يرى دراسة هذه العوامل ينبغي أن تكون في ضوء العوامل المادية والاجتماعية. فالتطور الاجتماعي

---

[٣٤] محمد علي أبو ريان: **النظم الاشتراكية**، دار المعارف، القاهرة، ط١، بدون تاريخ، ص(٢٦١).

[٣٥] هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، مرجع سبق ذكره، ص(٥٥).

[٣٦] خضر زكريا: **نظريات سوسيولوجية**، مرجع سبق ذكره، ص(٧٣- ٧٨).

عنده يقوم على أساس تاريخي شبه ميكانيكي، حيث يلعب الإنسان فيه دور مهماً من خلال جهوده وتحديه للظروف المختلفة، وبهذا يكون الإنسان هو صانع لتاريخه(٣٧).

٤- التغيير الاجتماعي الماركسي:

يرى ماركس أن عملية التغيير الاجتماعي ستتم من خلال **الثورة الاجتماعية** الحتمية الشاملة التي تسعى إلى القضاء على النظام القائم (الرأسمالي) لبناء مجتمع العدالة الاجتماعية (المجتمع الشيوعي). فالثورة في نظره هي ثورة (اجتماعية، اقتصادية، تكنولوجية، سياسية، قانونية، وإيديولوجية)، بل أنها أيضاً ظاهرة طبيعية لأنها تتضمن السيطرة على السلع المادية التي ينتجها الإنسان، وهي تعني أيضاً تغيير الإنسان لذاته. ففي كتابه بؤس الفلسفة ١٨٤٧ قرر " أن التاريخ بأجمعه ليس سوى تغيير مستمر للطبيعة الإنسانية "(٣٨). وأخيراً هي مقولة تاريخية، فكل نظريته الثورية مصاغة في إطار من مفهومه المادي للتاريخ، كما أن نظريته هي نظرية عن تغيرات التي تصيب المجتمع في التاريخ، وحتى نظريته في التاريخ ذاته عبارة عن عرض لعملية التطور الثوري للإنسان(٣٩). وعلى ضوء ذلك كله يمكن القول أن " الثورة

---

(٣٧) ياس خضير البياتي: **النظرية الاجتماعية – جذورها التاريخية وروادها**، مرجع سبق ذكره، ص(١٥٦- ١٥٧).

(38) Karl Marx: ***The poverty of Philosophy***, Foreign Languages publishing House, Moscow, Undated, p.(147).

(٣٩) السيد يس: **الفكرة الماركسية الثورية**، مجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد:٣، العدد:١، أبريل – مايو- يونيه، ١٩٧٢، ص(٢٨٥). عرض وتحليل لكتاب:

- Tuker Robert C: ***The Marxian Revolution Idea***, George Allen and Unwin Ltd, London, 1969.

الاجتماعية وفق التعريف الماركسي للمصطلح هي عبارة عن تغيير في نمط الإنتاج، يتبعه تغييرات أخرى في العناصر التابعة المكونة للبناء الاجتماعي ". ومصداقاً لمفهوم الثورة الاجتماعية نجد أن الثورات الاجتماعية الكبرى الحديثة، مثل الثورة الفرنسية كانت ثورة برجوازية على نمط الإنتاج الإقطاعي، وأن الثورة الاشتراكية بدورها ستكون ثورة البروليتاريا على نمط الإنتاج الرأسمالي. وهذه الثورات تعبر عن ثورة قوى الإنتاج على نمط علاقات الإنتاج السائدة، الذي يجد تعبيراً عنه – كما ذكرنا سابقاً – في الصراع الطبقي على المستوى الاقتصادي الذي يمكن أن يبلغ الذروة حين تتمكن الطبقة الثورية (البروليتاريا) التي تقود الصراع من التغيير الثوري للنظام القائم[٤٠]. تأسيساً على ذلك يرى **علي ليلة** أن الثورة البروليتارية تعتبر " واقعة فاصلة في المشروع الماركسي، ففيها يتحقق المنهج الجدلي، حينما تشكل الثورة الإطار الذي يتم في نطاقه التآلف، وفيها يتحقق الواقع العيني، حيث يتحقق الإمكان الذي كان مسلوباً في إطار واقع زائف. ثم هي بعد ذلك الهدف الذي تتحرك نحوه تكوينات ما قبل التاريخ، لكي يبدأ بها التاريخ الحقيقي للإنسان "[٤١]. **ولكن لماذا حتمية الثورة الاشتراكية (البروليتارية) بالمفهوم الماركسي؟**

في حقيقة الأمر يعتقد ماركس أن هذه الحتمية هي بدون أدنى شك وليدة مفهوم الاستغلال، استغلال البروليتاريا (الذين لا يملكون إلا قوة عملهم) من قبل أصحاب العمل الرأسماليين (المالكين لوسائل الإنتاج) مما سيؤدي

[٤٠] المرجع السابق نفسه، ص(٢٨٦).
[٤١] علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة – دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع (الأنساق الكلاسيكية)**، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٩١، ص(١٨٩).

بالمقابل إلى حتمية الثورة. فقد اعتمدت الماركسية في هذا السياق على نظرية فائض القيمة في علم الاقتصاد لتفسير هذا الاستغلال - كما ذكرنا سابقاً. بمعنى آخر نجد أن هذه القيمة المضافة هي قاعدة الاستغلال في النظام الاقتصادي الرأسمالي، التي بنت عليها الماركسية نظريتها الاقتصادية التي ستؤدي إلى تحريض البروليتاريا والقيام بالثورة الاشتراكية(٤٢).

وعلى الرغم من أن ماركس قد طور مفهوم الاستغلال بالاستناد إلى نظرية القيمة، إلا أن مفهوم الاستغلال (كمفهوم سوسيولوجي) عنده لا يعتمد فقط على الصياغة الفنية المتعلقة بالافتراضات الحرفية لنظرية القيمة. بل أيضاً على الاستغلال الطبقي الذي يمكن أن يفهم كعلاقة اجتماعية يتحدد بموجبها ما يلي:(٤٣)

(أ) إن رفاه ومنفعة المستَغِلين على حساب تعاسة وبؤس المستَغَلين.
(ب) تعتمد هذه العلاقة على استبعاد المستَغَلين عن جميع المسارات أو الطرق التي توصلهم إلى المصادر المادية.
(ج) إن استبعاد المستَغَلين عن الطرق المفضية إلى المصادر المادية يمكّن المستَغِلين من اقتطاع الجهد المبذول في العمل لدى المستَغَلين.
(د) ومعنى هذا أن المستَغِلين يمارسون استراتيجيات ودفاعات تبقي الوضع القائم في إطار العلاقة الاستغلالية كما هو دون تغييره.

(٤٢) عدنان السيد حسين: **تطور الفكر السياسي**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ٢٠١٢، ص(١٤٢).
(٤٣) محمد عبد الكريم الحوراني: **تأويل الاستغلال في نظرية علم الاجتماع – العناصر التكميلية لنظرية سوسيولوجية في الاستغلال**، مرجع سبق ذكره، ص(٣٩- ٤٠).

وهكذا مثّل مفهوم الاستغلال عند ماركس أطروحة مركزية تتجسد وجودياً في العلاقات الطبقية التي تشكل المجتمع والتاريخ والعملية الاجتماعية وآلية التغيير. بذلك يصبح الاستغلال محركاً للتاريخ البشري بموجب التناقض والصراع. إلا أنه بذات الوقت يعتبر منذراً بزوالها. فالتناقض القائم على الاستغلال يفضي في نهاية المطاف إلى شكل وجودي تتلاشى فيه الطبقات وتوزع فيه أدوات ووسائل الإنتاج أي يتلاشى الشكل الوجودي الذي يحرض الاستغلال ويكرسه. ومن هذا المنطلق فقد اعتبر ماركس المنظر الأول في الصراع الاجتماعي. إن اكتمال الشروط المفضية إلى الصراع الاجتماعي لا يكون إلا بوعي الطبقة المستَغَلَة (البروليتاريا) بظروف استغلالها. بحيث تتحول من طبقة في ذاتها إلى طبقة لذاتها تناضل بفعل جمعي للإطاحة بالرأسمالية المسيطرة وظروف الإنتاج المكرسة لخدمة مصالحها. لقد عول ماركس على طبقة البروليتاريا للقيام بالثورة، وأكد أن هذه الطبقة متزايدة في أعدادها، آخذة بالتوحد والتنظيم، ولذلك من شأنها أن تشكل قوة تاريخية ساحقة من ظروف الاستغلال(٤٤).

لذا يرى ماركس أن عملية التحول الاجتماعي – حسب رأيه – لا يمكن أن تتم إلا من خلال **البروليتاريا*** باعتبارها قوى اجتماعية (طبقة) خاصة تعدها

---

(٤٤) المرجع السابق نفسه، ص(٤٥- ٤٦).

* على العموم مصطلح البروليتاريا ليس اختراعاً ماركسياً بل هو مصطلح من العصر الروماني، يعني المواطنين الفقراء من الطبقة الدنيا في المجتمع، وكانوا في ذلك الحين معفيين من دفع الضرائب. وقد استخدم هذا المصطلح من جديد في أوائل القرن التاسع عشر للدلالة على الطبقات المعدومة والبائسة في الحياة الأوروبية، فأشار ماركس ورفيقه انجلز إلى أن البروليتاريا تعني الطبقة العمال الذين لا يعيشون إلا بقدر ما يجدون عملاً لهم، والذين تحولوا كسلعة تجارية وفق

ظروف وجودها الاقتصادية لعملية التحول وتعطيها الإمكانية والقوة للقيام بذلك. فبينما تتجزأ طبقة الرأسمالية وتتبعثر طبقة الفلاحين وجميع فئات الرأسمالية الصغيرة، توحد البروليتاريا صفوفها وتنظمها. فالبروليتاريا بحكم دورها الاقتصادي في الإنتاج الضخم هي الطبقة الوحيدة لكي تكون زعيماً لجميع جماهير الشغيلة والمستثمَرين الذين تستثمرهم الرأسمالية وتظلمهم وتضغط عليهم في حالات كثيرة ضغطاً ليس بأضعف بل هو أشد من ضغطها على البروليتاريين، ولكنهم غير أهل للنضال المستقل في سبيل تحررهم [٤٥].

ويبرر لنا ماركس سبب اختياره للبروليتاريا لأنها طبقة لن تستطيع أن تضمن حياتها إلا في عراك مع البرجوازية الرأسمالية السائدة، فهي نتاج نوعي للمجتمع الرأسمالي، أي يرتبط وجودها بطبيعة هذا المجتمع. لذا البروليتاريا قوى ثورية لأن ازدياد تركز الرأسمالية يؤدي إلى تدعيم قوتها واتساع عددها، وهي ثورية لأنها لا تملك شيئاً لتفقده سوى قيود الاستغلال، وهي ثورية أيضاً لأنها في ارتباطها بأشد القوى المنتجة تطوراً لا تملك في سبيل تحررها سوى إلغاء علاقات الإنتاج الرأسمالية التي توجه هذه القوى المنتجة ضد البروليتاريا [٤٦]. بمعنى آخر يرى ماركس أن هذه الطبقة هي الطبقة الوحيدة من بين جميع الطبقات التي تقف اليوم أمام الرأسمالية وجهاً لوجه، فماركس يرى الرأسمالية

متطلبات السوق التجارية، وبالتالي فهم على تناقض اجتماعي واقتصادي مع البرجوازية الصناعية.

[٤٥] لينين: **الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة**، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٠، ص(٣١-٣٢).

[٤٦] جورج بوليتزير: **المادية والمثالية**، ترجمة: إسماعيل المهدي، نشر الملتقى، تطوان (المغرب)، ط٢، ٢٠٠٦، ص(١٦٢).

عامل الصناعة الكبيرة بوصفها طبقة ثورية بالنسبة للإقطاعيين والفئات المتوسطة، الذين يرغبون في الحفاظ على جميع المراكز الاجتماعية الباقية عن أساليب الإنتاج البالية، ومن جهة أخرى يرى ماركس أن البروليتاريا طبقة ثورية بالنسبة الرأسمالية، لأنها نشأت ونمت وترعرعت على أساس الصناعة الكبيرة[٤٧]. " كما لدى ماركس رغبة عارمة للإيمان بأن البروليتاريا في بؤسها تتوق للمبادرة والمشروع والحرية وأنها ترفض الخنوع والانحصارية في المهنة والاهتمام بالأمن تماماً على نحو ما يرفضها ماركس.... وأخيراً فالبروليتاريا أكثر الطبقات معاناة، فهي طبقة تحدد مستقبلها لا طبيعتها بل بحرمانها "[٤٨]. وما تقدم ليس رأياً عاطفياً منه بل لأنها أحق بهذا الدور بعد أن أصبحت كذلك موضوعياً، نتيجة وضعها التاريخي في قلب الرأسمالية.

فبقدر ما يتطور النظام الرأسمالي نحو تأكيد سيطرة الطبقة الرأسمالية وتركيز رؤوس الأموال في أيدي الأقلية بقدر ما تقوى طبقة البروليتاريا ويتحد أفرادها وينشأ لديهم (وعي طبقي) يشعرهم بمركزهم في النظام واتحاد مصالحهم في مواجهة الرأسماليين الذين يستغلونهم. هذا الوعي الطبقي حسب ماركس يؤدي إلى أن تنظم البروليتاريا نفسها للدفاع عن مصالحها، فيشتد الصراع بينها وبين الرأسماليين، ينتهي الأمر باندلاع الثورة الاجتماعية والقضاء على الرأسمالية[٤٩]. مما يتيح لها السيطرة على المجتمع وإقامة حكم دكتاتورية

[٤٧] كارل ماركس: **نقد برنامج غوتا**، دار التقدم، موسكو، ١٩٦٨، ص(٢٢-٢٣).

[48] Eugene Kamenka: ***The Ethical Foundations of Marxism***, op.cit, p.(ix).

[٤٩] ثروت بدوي: **النظم السياسية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٥، ص(٣٨٢).

البروليتاريا كمرحلة انتقالية لإقامة المجتمع الشيوعي. بهذا تكون الخطوة الأولى عند ماركس لكسب المعركة الديمقراطية في ثورة الطبقة البروليتارية هي رفعها إلى موقف الطبقة الحاكمة (السائدة)، لإلغاء جميع أشكال الملكية الخاصة والاستغلال[٥٠].

يقصد ماركس بحكم دكتاتورية البروليتاريا أنه " ما بين المجتمع الرأسمالي والمجتمع الشيوعي تقع مرحلة تحول المجتمع الرأسمالي تحولاً ثورياً إلى المجتمع الشيوعي. وهي مرحلة تتطابق معها مرحلة سياسية لا يمكن للدولة أن تكون فيها إلا الدكتاتورية الثورية للبروليتاريا "[٥١]. ويستند استنتاج ماركس هذا إلى تحليل ذلك الدور الذي تلعبه البروليتاريا في المجتمع الرأسمالي الراهن وإلى وقائع تطور هذا المجتمع وإلى واقع أن مصالح البروليتاريا والبرجوازية المتضادة لا يمكن التوفيق بينها. لذلك يتوجب على البروليتاريا، لكي تكسب حريتها أن تسقط الرأسمالية وأن تظفر بالسلطة وأن تقيم دكتاتوريتها الثورية[٥٢]. ويعتبر ماركس ذلك شرط عام وضروري من قوانين الاشتراكية الماركسية لتحقيق مهام الفترة الانتقالية. وفي هذا الصدد يقول ماركس: يجب على البروليتاريا " أن تطور نفسها إلى طبقة سائدة لتهدم بعنف وبشدة علاقات الإنتاج القديمة، كما

---

(50) Sigmund Krancberg: ***Karl Marx and Democracy***, Studies in Soviet Thought, Vol: 24, No: 1, Jul-1982, p.(32).

(٥١) اندريه توزيل وآخرون: **ماركس ونقده للسياسة**، ترجمة: جوزيف عبد الله، دار التنوير، بيروت، ٢٠٠٨، ص(٣٥).

(٥٢) لينين: **الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة**، مرجع سبق ذكره، ص(١٠٩).

تهدم رابطة من الأفكار والآراء التقليدية بما فيها الدين والأخلاق "[٥٣] حسب رأيه. " فالانتصار لا يمكن أن يكون إلا بالدكتاتورية، لأن تحقيق التحولات التي هي ضرورية سيثير مقاومة مستميتة من جانب الملاكين العقاريين وكبار البرجوازيين والقيصرية، وبدون الدكتاتورية، لا يمكن تحقيق هذه المقاومة، وصد المحاولات المعادية للثورة الاشتراكية "[٥٤]. ومن الجدير بالذكر أن" تعبير دكتاتورية البروليتاريا اخترعه ماركس، ويعبر عن مفهوم نظري عظيم الأهمية. إنه قابل دكتاتورية البرجوازية التي وجدت في المجتمع الرأسمالي بـ " فترة انتقالية سياسية لا تتحقق إلا بدكتاتورية البروليتارية الثورية ". وأنها تبقى طيلة الفترة بين الرأسمالية والمجتمع الشيوعي، أي في فترة المجتمع الاشتراكي. ولكن ماركس لم يكن في ذهنه أشكال سياسية محددة "[٥٥].

وهكذا بإقامة دكتاتورية البروليتاريا كمرحلة انتقالية، ينتهي خلالها صراع الطبقات، وتطبق فيها الاشتراكية تطبيقاً يزيل جميع التناقضات المتخلفة عن المجتمع القديم الذي سقط. فالاشتراكية بناءً على ما تقدم هي المرحلة التي تلي البرجوازية، إنها مرحلة ما قبل الشيوعية. ويتم بلوغها كما أسلفنا سابقاً بقوة الثورة، والثورة حتمية مع التطور الصناعي الحاصل، وما سينشأ عنه من ظواهر مادية، وبالتالي اجتماعية وسياسية. وإن تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية أدى إلى الانتقال بالنظام الاقتصادي والاجتماعي من " دعه يعمل

(٥٣) هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، مرجع سبق ذكره، ص(٩٢- ٩٥).
(٥٤) لينين: **المختارات**، دار التقدم، موسكو، المجلد:١، الجزء: ٢، ١٩٦٠، ص(١٤٠).
(٥٥) جان إيلينشتاين: **ظاهرة ستالين**، ترجمة: مجيد الراضي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، دراسات:١٦، ط١، ١٩٩٦، ص(١١).

دعه يمر " إلى نظام الرقابة الحكومية، ثم إلى نظام دولة الخدمات الاجتماعية، ثم إلى نظام ملكية الدولة بعد زوال الملكية الفردية أو الخاصة، وهنا ينشأ النظام الاشتراكي(٥٦)، الذي سيرفع شعاره " من كل حسب قدرته، ولكل حسب إنتاجه " ثم يأتي عصر المجتمع الشيوعي الذي سينادي بتطبيق شعار " من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته ". وآنئذ وبعد أن سقطت القواعد والاعتبارات التي كانت تتطلب قيام الدولة. تسقط الدولة نفسها بكل أجهزتها، وتتحول كل أجهزتها إلى المجتمع ذاته(٥٧). وهذا ما سنحاول توضحيه في العنصر الرابع والأخير الذي يتحدث عن تصور ماركس لطبيعة المجتمع الجديد بعد تحقيق عملية التحول الاجتماعي.

٥- تصور ماركس لطبيعة المجتمع الجديد:

خلال القرون العديدة الماضية راود الشعب القابع تحت نير الاستغلال والحاجة والعوز الحلم بحياة حرة سعيدة. حلم الناس بزوال الظلم، واستعباد الإنسان للإنسان، وبأن يكون الجميع متساوين فيما بينهم، وبأن تعود كل الثروات وكل ثمار العمل الإنساني للشغيلة أنفسهم، وبأن ثمة وفرة في الخيرات المادية. فكيف يحقق الناس حلمهم، وبأية الطرق يصلون إلى حياة أفضل؟ ظل الناس زمناً طويلاً يجهلون ذلك. ولم تستطع الإجابة على هذا السؤال إلا الاشتراكية العلمية التي حلت محل الاشتراكية الطوباوية غير العلمية التي

(٥٦) عدنان السيد حسين: **تطور الفكر السياسي**، مرجع سبق ذكره، ص(١٤١).
(٥٧) خالد محمد خالد: **أزمة الحرية في عالمنا**، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ص(٥٠).

تتجاوز الحلم بمجتمع المستقبل. لقد حوّل ماركس الحلم القديم بالمجتمع السعيد، مجتمع السلام والعمل والحرية والمساواة، إلى نظرية علمية وأشار إلى الطرق الواقعية نحو الهدف المنشود، وإلى تلك القوى الثورة القادرة على تهديم العالم القديم وبناء مجتمع اشتراكي جديد(٥٨).

إلا أن ماركس لم يطرح تصوراً متكامل الملامح للمجتمع الجديد في كتاباته الأساسية، وهو مجتمع الذي سوف يتخلق – كما أسلفنا سابقاً – عن الثورة البروليتارية، ومن ثم فإن محاولة تشخيص هذا المجتمع من حيث نظامه، أو من حيث طبيعة الموقف الاجتماعي في إطاره، أو طبيعة السلوك أو النشاط الاجتماعي كتعبير عن التفاعل بين مكونات الموقف، إنما تشتق أساساً عن أفكاره فيما يتعلق بالنظام الرأسمالي(٥٩).

وفي محاولة تتبعنا لرؤية ماركس لطبيعة المجتمع الجديد، نجد أنه في حقيقة الأمر كان ينتقد وبشدة المذاهب الفكرية والسياسية، التي كانت تحدد بنية وطبيعة المجتمع الجديد، وذلك من خلال بعض المقالات التي نشرها في إحدى الصحف عام ١٨٤٣، فهو يكتب قائلاً في المقال الثالث على سبيل المثال: " على الرغم من أن ليس هناك أي شك حول قضية (**من أين؟**) فإن البلبلة الفكرية تهيمن بشكل متزايد حول قضية (**إلى أين؟**) إننا لا نواجه فقط اندلاع فوضى عامة بين المصلحين ولكن كل واحد منهم سيضطر إلى الاعتراف لنفسه بأن ليس لديه أي مفهوم صحيح حول ما سوف يكون ". ثم يضيف بأن

(٥٨) ميناييف: **نشوء الاشتراكية العلمية ومبادئها**، دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ، ص(٣-٤).
(٥٩) علي ليلة: **النظرية الاجتماعية المعاصرة – دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع (الأنساق الكلاسيكية)**، مرجع سبق ذكره، ص(١٩٩).

مسألة هذا العالم الجديد، ما سيكون عليه هذا العالم، تعكس مطلباً طبيعياً، ولكن ما حدث هو أن كل مصلح بين هؤلاء المصلحون الذين قدموا أجوبة مفصلة على هذه المسألة كان ينتهي بمذهب أو مخطط خاص به للنظام الجديد، مما يعني أن هذه المذاهب والمخططات كانت كلها مختلفة ومتناقضة، وكلها غير مقنعة إلا لفئة معينة من الأتباع المؤمنين(٦٠). إلا أن ماركس في المقابل كان يعبر عن إعجابه بإسهامات معينة قام بها بعض المصلحين أو المنظرين لهذا العالم أو المجتمع الجديد، مع رفضه القاطع لأي إسهام أو نظرية تجيب بشكل نهائي عن السؤال الأساسي المطروح وهو " ما سيكون عليه المجتمع الجديد "، لهذا نراه يقترح تجاوز جميع المذاهب الفكرية الموجودة، وسلوك طريق جديد يحاول أن يكشف عن طبيعة المجتمع الجديد في نقد المجتمع القديم، بدلاً من محاولة التنبؤ بطبيعة المجتمع القادم.

من هذا المنطلق يرى ماركس أن حركة التاريخ في مجراها التاريخي هي التي تخلق الأوضاع الضرورية لتحرير المجتمع والحياة الاجتماعية من أشكال (الاستثمار، والتسلط، والقمع) التاريخية. وما تنطوي عليه هذه الغائية التاريخية من مضامين، " بمعنى أنها تضفي على التاريخ معنى أو غرضاً "(٦١)، وما تعبر عنه من قوانين، أو ما يترتب عليها من نتائج، فتطور المجتمع الرأسمالي يخلق في جدليته الخاصة تناقضات – كما ذكرنا سابقاً –

---

(60) Hal Draper: ***Karl Marx's Theory of Revolution***, Monthly Review Press, vol: I, State and Bureaucracy, 1977, p.(100-101).

(٦١) أندرو هيود: **مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية**، ترجمة: محمد صفار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، سلسلة العلوم الاجتماعية للباحثين، العدد: ١٨٣٠، ط١، ٢٠١٢، ص(١٤٩).

تؤدي إلى طريق مسدود يترتب عليها عاجلاً أم آجلاً نهاية هذا المجتمع. وهذا يدل على أن ماركس كان يسعى باستمرار إلى التركيز على الاتجاهات والقوانين التي تحرك الواقع الاجتماعي – التاريخي القائم نحو المستقبل، التركيز عليها وليس على هذا المستقبل أو أبنية المجتمع الجديد، إلا أنه بالمقابل كان يحمل دون أي شك صورة عامة عن هذا المجتمع الذي يعمل من أجله ويتوقع قيامه، لكن ليس لديه أي تصميم دقيق له. لأنه ركز جهوده على تحليل حركة صيرورة المجتمع الرأسمالي والنتائج والآثار التي تترتب عليها، مما دفع به إلى عدم إعطاء تحديد مفصل لهذا المجتمع الشيوعي الجديد، لكن هذا لا يعني إهمال ماركس لفكرة المجتمع الجديد أو حتى تحويلها لفكرة ثانوية في نظريته المادية التاريخية. فدراسة نظرية ماركس تدل على أن هذه الفكرة هي فكرة محورية في نظريته ولكنها تقتصر على إبراز الملامح الأساسية التي تميز هذا المجتمع وتبرز هويته الجديدة، أي كفكرة تتجنب تماماً ترجمة ذاتها إلى صورة دقيقة مفصلة(٦٢).

بناءً عليه نجد أن غاية التاريخ عند ماركس تتمثل بشكل واضح لا ريب فيه في الشيوعية اللاطبقية، " الشيوعية المقامة لدواعي الحرية لا لدواعي الأمن "(٦٣). إلا أن هذه الغاية برأيه لن تتحقق إلا فور تطور التاريخ عبر سلسلة من المراحل أو الحقب، حيث يتسم كل منها ببنية اقتصادية ونظام طبقي

(٦٢) نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ٢٠٠٠، ص(٢٢٤).

(63) Eugene Kamenka: ***The Ethical Foundations of Marxism***, op.cit, p.(vii).

خاص بها[٦٤]. بالاستناد إلى الإنتاج المادي الذي هو يحدد جوانب الحياة الاجتماعية وقد قسم ماركس التاريخ إلى خمس مراحل تعكس كل منها الدور الذي لعبه العامل الاقتصادي فيها، وهي كالآتي:[٦٥]

– **الشيوعية البدائية أو المجتمع القبلي:** ويبدأ تاريخه بظهور الإنسان الذي تفرقه عن الحيوان قدرته على صنع واستخدام أدوات العمل.. حيث عاش الناس في جماعات وعشائر ترتكز على روابط الدم في مأوى مشترك، ولم يكن هناك شيء يمكن امتلاكه ومن ثم فإن الملكية الخاصة والطبقات والاستغلال لم يكن لها وجود. " إلا أن الندرة المادية هي التي شكلت المصدر الرئيسي للصراع في تلك الحقبة "[٦٦].

– **العبودية:** في تلك المرحلة تطورت قوى الإنتاج، وحفر الناس الترع، ونشأت الحرف... ومع النمو المطرد في الإنتاج والعمل بدأت العشائر تتجزأ إلى أسر، ونشأت الملكية الخاصة، ومع زيادة الإنتاج عن الاستهلاك أصبح في الإمكان الاحتفاظ بالفائض، وبالتالي ظهرت بوادر الاستغلال عن طريق التجارة والاحتكار، ووجدت علاقات سيطرة وخضوع، ترتب عليها انقسام المجتمع إلى طبقتين الأسياد والعبيد.

– **الإقطاعية:** بمرور الزمن أصبح التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج في المجتمع العبودي – حاداً للغاية، فتوالت الاضطرابات بين العبيد وأسيادهم

(٦٤) أندرو هيود: **مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية**، مرجع سبق ذكره، ص(١٥٠).
(٦٥) محمد سيد أحمد المسير: **المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه**، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٨٩، ص(٣٦٦-٣٦٧).
(٦٦) أندرو هيود: **مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية**، مرجع سبق ذكره، ص(١٥٠).

وفي الوقت نفسه، استمر التقدم المطرد فظهرت طواحين الهواء والماء وصناعة الورق والبارود، وتقدمت الحرف، وحققت الزراعة تطوراً كبيراً بفضل الفصائل الجديدة من الحبوب والفاكهة، وانتشار الأسمدة واتساع تربية الحيوان، وارتبط العبيد بالأرض إلا أنهم حققوا لأنفسهم بعض التقدم، " أدت هذه التطورات إلى ظهور المجتمع الإقطاعي، والنظام الأبوي الذي يكون فيه الحراك محكوم بسيطرة الإقطاعيين (النبلاء)، وتحكمهم في الفلاحين "[٦٧]. بذلك ينحصر العداء الطبقي بين ملاك الأراضي والفلاحين (الأقنان). وهنا يجب أن نشير أن الهيكل العام للمجتمع الإقطاعي لا يختلف عن مثيله في المجتمع العبودي (فيما عدا تطور أدوات الإنتاج)، فالفارق الوحيد هو قيام جهاز الدولة والجيش ورجال الدين بالدفاع عن مصالح الإقطاعيين والحفاظ على المكية الخاصة.

– **الرأسمالية:** فمع تطور قوى الإنتاج أصبحت علاقات الإنتاج في البناء الإقطاعي غير فعالة مما أدى إلى انهياره في مواجهة التحضر، ونمو برجوازية المدن وتزايد الحاجة للاقتصاد الصناعي، والتأثير العام للسفر إلى مختلف مناطق العالم وبداية الاستعمار[٦٨]. ولقد كانت النتيجة لهذا التطورات هي ظهور الرأسمالية الصناعية، التي سعت إلى إحلال المصانع الضخمة محل الورش الحرفية، وتحرر العمال من الأرض ولكنهم لم يتحرروا من سيطرة الرأسمالي، لأنهم لا يملكون وسائل الإنتاج، فاضطروا إلى بيع قوة عملهم مقابل أجر زهيد، فنمت الرأسمالية وتضخمت وتحولت إلى استعمار والاحتكارات

---

[٦٧] جراهام كينلوش: **نظرية علم الاجتماع – نماذجها الرئيسية وتطورها**، ترجمة: فادية عمر الجولاني، المكتبة المصرية، الإسكندرية، ٢٠٠٢، ص(١٣٨).
[٦٨] المرجع السابق نفسه، ص(١٣٩).

العالمية، ومن هنا تعمقت وظهرت إيديولوجية الطبقة العاملة (البروليتاريا) جنباً إلى جنب مع أفكار البرجوازية المستغلة وهذا المجتمع يغلب عليه الصراع بين البرجوازية والبروليتاريا.

– **الاشتراكية – الشيوعية:** وفي هذه المرحلة تبدأ الرأسمالية عملية الانحلال الذاتي بسبب تناقضاتها الداخلية، متجهة بالمجتمع نحو النهاية المحتومة، بإحلال المرحلة الاشتراكية محل المرحلة الرأسمالية لتصبح أموال الإنتاج من مصانع وأراضي ومواد أولية ووسائل نقل وما إلى غير ذلك من متطلبات الإنتاج مملوكة ملكية جماعية. فالاشتراكية بنظر ماركس تمثل مرحلة انتقالية لازمة في التطور الاقتصادي ينتقل المجتمع عبرها من الرأسمالية إلى الشيوعية[٦٩]. ويتم بلوغ الاشتراكية حسب ماركس بقوة الثورة والثورة حتمية مع التطور الصناعي الحاصل، وما سينشأ عنه من ظواهر مادية، وبالتالي اجتماعية وسياسية، وبالطبع ستقود هذه الثورة الطبقة البروليتارية باعتبارها قوى التحول الاجتماعي نحو الاشتراكية، لتفرض دكتاتوريتها من أجل تحقيق مهام الفترة الانتقالية، عبر تطوير نفسها إلى طبقة حاكمة لتهدم كل علاقات الإنتاج القديمة، مما يؤدي إلى الانتقال بالنظام الاقتصادي والاجتماعي " دعه يعمل دعه يمر " إلى نظام الرقابة الحكومية، ثم إلى نظام الخدمات الاجتماعية، ثم إلى نظام ملكية الدولة بعد زوال الملكية الفردية أو الخاصة، بهذا ينشأ النظام الاشتراكي[٧٠]. وهنا يجب أن نشير أن هذه المرحلة تقوم على مبدأ " **من كل**

[٦٩] صلاح الدين قنديل: **العدالة الاجتماعية**، مطابع الأهرام، القاهرة، ط١، ١٩٩٩، ص(٧١-٧٢).

[٧٠] عدنان السيد حسين: **تطور الفكر السياسي**، مرجع سبق ذكره، ص(١٤١).

حسب قدرته، ولكل حسب عمله "، وذلك بسبب الاستغلال الرأسمالي الذي يبذر ثروات العمل الإنساني، والنتيجة الأولى لإزالة استغلال الإنسان لأخيه الإنسان هو أن العامل يستطيع في تلك المرحلة أن ينال حسب عمله الذي يؤديه دون أن يسلب جزءً من الثروة التي أنتجها، ويرجع سبب هذه الإجراءات التي تتخذها السلطة الجديدة، لأنها تسعى إلى زيادة الإنتاج. غير أن حاجات الفرد اللامحدودة ليست هي التي تمدنا، في هذه المرحلة، بمبدأ التوزيع. وذلك لأن كل زيادة في الإنتاج، إذا أريد لها أن تعيش وتستمر، يجب أن تبدأ بزيادة إنتاج وسائل الإنتاج، إذ يجب، قبل سد حاجات الاستهلاك الفردي أن تسد حاجات المجتمع المادية إلى وسائل الإنتاج. فالمجتمع الرأسمالي يترك للاشتراكية وضعاً سيئاً جداً لا يتفق فيه إنتاج وسائل الإنتاج مع وسائل الاستهلاك. وهكذا يتفق قول الاشتراكية إذن " من كل حسب قدرته، ولكل حسب عمله " مع الواقع، وهو أنه في المرحلة الدنيا للمجتمع الشيوعي يجب أن يتم إيجاد مقياس للاستهلاك. وهذا المقياس في واقع الأمر نجده في العمل، وذلك لأن كمية العمل الذي يؤديه كل فرد ونوعه هما اللذان يحددان القدر الذي يجب أن يناله من الإنتاج الاجتماعي، وهذه الطريقة – حسب الماركسية – هي الطريقة الوحيدة العادلة لتقدير حقه في الاستهلاك، لذلك لم يعد هناك محظوظون ولا مستغلون، بل يصبح العمل هو سيد المجتمع. يضاف إلى ذلك أن العمل هو الشرط الأساسي لازدهار قوى الإنتاج، أي ظهور الشيوعية فيما بعد. بذلك يعتبر المبدأ الذي تقوم عليه الاشتراكية خطوة كبرى إلى الأمام بالنسبة إلى المرحلة السابقة

(الرأسمالية) التي لا ينال فيها العامل قط حسب عمله[٧١]. وهكذا " لا يعدو التاريخ الإنساني أن يكون صراعاً ممتداً بين المضطهِدين والمضطهَدين، أو بين المستغِلين المستغَلين. ويرى ماركس الشيوعية أو المجتمع اللاطبقي الذي يقوم على الملكية المشتركة للثروة الإنتاجية. ومع إرساء دعائم الشيوعية سينتهي ما يطلق عليه ماركس (ما قبل تاريخ النوع البشري) "[٧٢].

لكننا قبل الحديث عن طبيعة المجتمع الشيوعي عند ماركس أو ما يسمى بنهاية التاريخ. نجد أن ماركس في سياق تصوره لطبيعة المجتمع الجديد قد أضاف عناصر أساسية إلى الفكر الاجتماعي بشكلٍ عام، التي ستميز نظريته بشكل خاص عن النظريات الاجتماعية الأخرى، حتى ما كان منها أكثر عمقاً وتقدمية، وهي كالآتي:

أولاً: تدليله بأن وجود الطبقات ترتبط ببعض المراحل التاريخية في تطور الإنتاج.

ثانياً: بأن الصراع الطبقي يقود بالضرورة إلى دكتاتورية البروليتاريا.

ثالثاً: أن هذه الدكتاتورية هي دكتاتورية ذات طبيعة انتقالية فقط، تقوم بدور معين في وهو إلغاء الطبقات والبنية الطبقة كلها والانتقال إلى المجتمع اللاطبقي[٧٣]. هذه الإضافات الثلاث تدل بوضوح على أنها تدور كلها حول

---

[٧١] جورج بوليتزر وآخرون: **أصول الفلسفة الماركسية**، الجزء:٢، مرجع سبق ذكره، ص(١٠٩).
[٧٢] أندرو هيود: **مدخل إلى الإيديولوجيات السياسية**، مرجع سبق ذكره، ص(١٥٠).
[٧٣] لمزيد من المعلومات والتوضيحات انظر: كارل ماركس: **نقد برنامج غوتا**، مرجع سبق ذكره، ص(٣٣- ٣٤).

فكرة المجتمع الجديد، وأن التاريخ ذاته يكشف عن غائية تتمثل في هذا المجتمع، فالبنية الطبقية ستزول، وهذا الزوال جيد وضروري، ولكنه يحتاج – رغم أنه من صنع التاريخ الذي يقود إليه في جدلية حركته الخاصة – إلى دكتاتورية البروليتاريا كونها تشكل أداة انتقالية إلى المجتمع اللاطبقي أي المجتمع الجديد(٧٤). لهذا يمكن القول أن ما يميز الماركسية الحقة هو القول بالصراع الطبقي، ودكتاتورية البروليتاريا، ويشير إلى ما يحدث في سياق معين يقود إلى المجتمع الجديد، ويجد معناه في هذا السياق. فقد حدد ماركس في " **البيان الشيوعي** " الصادر عام ١٨٤٨، مراحل هذا السياق الذي تمر فيه الثورة بعد انتصارها على القوى الرجعية المحافظة، ففي المرحلة الأولى، تتحول البروليتاريا إلى طبقة حاكمة تمارس دكتاتورية مرحلية، أما في المرحلة الثانية، تتسم سيطرة طبقة العمال بأنها سيطرة مرحلية أيضاً لأن ثورتها تقتضي في طبيعتها ذاتها زوال جميع أنواع الطبقات، وفي المرحلة الثالثة، المجتمع الذي تفرزه الثورة مجتمع مكون من أفراد أحرار ومتحررين، وفي المرحلة الرابعة والأخيرة، الدولة ذاتها التي تشكل في جميع المجتمعات الطبقية أداة في يد الطبقات الحاكمة، تخسر وظيفتها بسبب زوال الظاهرة الطبقية، وبالتالي تصبح دون جدوى. بهذا نجد أن السلطة السياسية أو الدولة تخسر أرضيتها عندما تزول جميع أشكال المراتب الطبقية، وعندما يتركز الإنتاج نفسه في يد المجتمع أو اتحاد تعاوني يشمل المجتمع كله. فالمجتمع الجديد بالنسبة إلى ماركس

- فيودو روفسكي: **بصدد مؤلف ماركس حول الحرب الأهلية في فرنسا**، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٨، ص(٧٠-٧١).

(٧٤) نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، مرجع سبق ذكره، ص(٢٢٥).

يشكل نهاية مطاف هذه المراحل. بمعنى آخر " إن المجتمع الشيوعي هو وحده الذي يجعل الدولة أمراً لا لزوم له، لأنه لا يبقى عندئذ أحد ينبغي قمعه بالمعنى الطبقي، بمعنى النضال المنظم ضد قسم معين من أفراد المجتمع. إلا أن في مرحلة الانتقال من المرحلة الرأسمالية إلى المرحلة الشيوعية يظل فيها القمع أمراً ضرورياً، ولكنه يغدو قمعاً للأقلية المستثمِرة من جانب الأكثرية المستثمَرة، لأن الدولة تكف عن أن تكون بالمعنى الخاص للكلمة كما كانت في المجتمع البرجوازي "[٧٥].

بذلك يشكل المجتمع الشيوعي منتهى الفكر الماركسي، لأنه حتمي بناءً على ما سبق، حيث يتدرج هذا المجتمع من الشيوعية الدنيا (الاشتراكية) إلى الشيوعية العليا التي تعني زوال الدولة بالمعنى الحقيقي، وغياب مفهوم الطبقة في المجتمع " ليتحقق المجتمع الشيوعي الخالي من أي نوع من أنواع الصراع. كما يتصف المجتمع الشيوعي بأنه مجتمع ذاخر ومليء بالفوائد والمصالح، حيث سيفسح للجميع حرية العيش والعمل بمرونة لينتجوا أشكالاً ابتكارية لأجل مصلحتهم بدلاً من مصلحة الآخرين. كما سيصبح للأفراد أيضاً في ظل هذا المجتمع حق تقرير مصيرهم والتحكم به وصنع التاريخ الخاص بهم مع ملاحظة أن المساواة تخلق التحرر. بالإضافة إلى حق الفرد بالقيام بشيء ما اليوم والقيام بعمل آخر في الغد أو على سبيل المثال القيام بالصيد في الصباح وصيد الأسماك في المساء وتربية الأبقار في نهاية اليوم والقيام بالنقد في الليل أو بعد

[٧٥] لينين: **الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٤-١١٥).

تناول العشاء تماماً كما هو الحال في المقولة " ما دام عندي عقلاً" *Just as a Mind* أصبح صياداً وقناصاً واعياً وناقداً[٧٦].

ولكن لماذا ينتهي التاريخ لدى ماركس عند المرحلة الشيوعية؟ لأنه يؤمن بأن الشيوعية وحدها، التي يمكن أن تعطي للطبقات البروليتارية والفقيرة كافة حقوقها. فلم تعد الإصلاحات السياسية والاجتماعية كافية لحل الأزمات الاقتصادية والصراع بين الطبقات الغنية (الارستقراطية) والطبقات المعدومة، فعملية تركز الثروة في أيدي الأغنياء ستؤدي إلى الثورة الاجتماعية "[٧٧].

وهكذا يتحرر الإنسان في المجتمع الشيوعي من الدولة والطبقة والدين والاقتصاد والأسرة... لتسيطر عليه قواعد عامة هي أقرب إلى القواعد الأخلاقية، ليصبح جميع الأفراد فيه أحراراً متساوين، كما ويترافق مع مجمل هذه التحولات التي أشارتَ إليها الماركسية زوال كل الفروقات بين الأمم أي زوال القوميات، بحيث يتكوّن مجتمع كوني واحد يتصف بأنه مجتمع غير طبقي، غير مجزأ قومياً[٧٨].

وفي النهاية يؤكد لنا ماركس أن قيام المجتمع الشيوعي يعني بكل تأكيد تحرير الإنسان من حالة الاغتراب التي كانت باستمرار تورثه البؤس وتخنق إمكاناته وسعادته. فالمجتمع الجديد برأيه لا يمكن أن يكون ممكناً في الواقع مع استمرار حالة الاغتراب، لأن هذه الحالة تتناقض تماماً مع ما يعنيه وجوده من

(٧٦) فيليب جونز: **النظريات الاجتماعية والممارسة البحثية**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٣).
(٧٧) أحمد الصادق: **الديمقراطية الليبرالية ونهاية التاريخ – بحث في فلسفة الحضارة الغربية**، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢، ص(٥٢-٥٤).
(٧٨) عدنان السيد حسين: **تطور الفكر السياسي**، مرجع سبق ذكره، ص(١٤٢-١٤٣).

انسجام متكامل الجوانب، انسجام الإنسان مع ذاته ومع المجتمع الذي يعيش فيه[٧٩]. وهنا يجب أن نشير أن الشيوعية التي تحدث عنها ماركس " ليست البدائية أو المشاعية التي عُرفت في مرحلة ما قبل التاريخ، بل إن الشيوعية الماركسية هي تحرر الإنسان تحرراً كاملاً بحيث يتملك ذاتيته الإنسانية بدون أية عوائق. لأن الشيوعية حسب ماركس هي الحل الوحيد للتناقض والصراع بين الإنسان والطبيعة، وبين الإنسان والإنسان، وبين الذات والوجود[٨٠]. بمعنى آخر يمثل المجتمع الشيوعي " الانتقال من حكم الضرورة إلى حكم الحرية ". لكن بالمقابل علينا أن نتساءل كيف سيتم حل التناقضات داخل المجتمع الشيوعي الماركسي (ديالكتيك قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج)؟ " لأنه كما نعلم أن قانون الترابط الضروري بين علاقات الإنتاج هو قانون شامل يصح في جميع طرق الإنتاج بدون استثناء "[٨١].

ترى الماركسية في هذا الجانب أن المجتمع الشيوعي تنبثق فيه تناقضات أيضاً بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج، فنمط الإنتاج كما نعلم لا يتوقف عن النمو والتطور وسبب كل حركة في الماركسية، هو التناقض، غير أن طابع التناقض بين جانبي الإنتاج وأشكال تطورها، وأساليب حلها في ظل الاشتراكية والشيوعية يختلف اختلافاً مبدئياً عنها في ظل المراحل السابقة (التشكيلات الاقتصادية- الاجتماعية)، إذ أن قانون الملائمة في المجتمع الشيوعي يتميز

(٧٩) نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، مرجع سبق ذكره، ص(٢٣٣- ٢٣٤).
(٨٠) عبد الوهاب الكيالي: **موسوعة السياسة**، الجزء:٣، مرجع سبق ذكره، ص(٥٣٩).
(٨١) جورج بوليتزر وآخرون: **أصول الفلسفة الماركسية**، الجزء:٢، مرجع سبق ذكره، ص(١١٦).

بخاصية رئيسية تتلخص في أنه في ظل الاشتراكية الشيوعية تتوفر للمجتمع إمكانية اتخاذ الإجراءات في الوقت المناسب لجعل علاقات الإنتاج تتلاءم مع قوى الإنتاج المتنامية، أي إمكانية حل التناقضات الناشئة بين جانبي الإنتاج حلاً واعياً[٨٢]، دون أن تعمل الطبقات الرجعية على الوقوف في وجهها خدمةً لمصالحها، فليس هنا تعارض بين الطبقات، لأنه لا يوجد مكان للمفهوم الطبقي في المجتمع الشيوعي. بمعنى آخر أن المجتمع الشيوعي لا يضم في داخله، طبقات في طريقها إلى الزوال يمكن أن تقف في وجه ذلك[٨٣].

تأسيساً على ما تقدم نجد أن فكرة المجتمع الجديد تشكل فكرة محورية في الفكر الماركسي، هذه الفكرة هي التي كانت تحوّل المادية التاريخية التي انطلقت منها ماركس إلى منطلق تاريخي يحفز الحركات والثورات الشيوعية، التي تعمل على ترجمته إلى واقع ملموس[٨٤]. أما عن طبيعة المجتمع الجديد عند ماركس، فإنه يتسم بعدة مقومات أساسية أهمها " الملكية العامة لوسائل الإنتاج من خلال القضاء على الملكية الخاصة بامتلاك الدولة للصناعة، فوسائل الإنتاج تخص المجتمع كله "[٨٥]. لأن " المجتمع الشيوعي مجتمع غير طبقي مجتمع يختفي فيه صراع التيارات وطرق المعيشة "[٨٦]، حيث " لن تكون

---

[٨٢] خضر زكريا: **نظريات سوسيولوجية**، مرجع سبق ذكره، ص(٨٨- ٨٩).
[٨٣] جورج بوليتزر وآخرون: **أصول الفلسفة الماركسية**، الجزء:٢، مرجع سبق ذكره، ص(١١٨).
[٨٤] نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، مرجع سبق ذكره، ص(٢٢٦).
[٨٥] لينين: **الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة**، مرجع سبق ذكره، ص(١١٧).
[86] Eugene Kamenka: ***The Ethical Foundations of Marxism***, op.cit, p.(viii).

مصالح الأفراد متعارضة بل متحدة، بسبب زوال المزاحمة، ولن يدور الكلام حول التفاوت الطبقي مثلما هو عليه في المجتمع البرجوازي الأغنياء والفقراء، لأنه عند إنتاج وتوزيع الخيرات الحياتية الضرورية سيزول الاستملاك الشخصي "[٨٧]. كما ويقوم المجتمع الجديد عند ماركس على إلغاء مبدأ تقسيم العمل الذي يؤدي إلى إزالة التضاد بين العمل الفكري والعمل الجسدي، حيث لا يبقى العمل مجرد وسيلة للعيش، بل يغدو الحاجة الأولى في الحياة[٨٨]. بذلك يصبح من حق الفرد بمجرد القضاء على هذا المبدأ حرية مزاولة النشاط الذي يروق له وعلى المجتمع أن يمكنه من ذلك[٨٩] " بهذا لن يكون هناك مثقفون كمجموعة مستقلة فكل مواطن سيشترك في العمل الذهني والعضلي، ليتمتع الجميع بظروف متساوية، ويتحلّون جميعاً بصفات العمل والنظام والإخلاص لمصالح المجتمع "[٩٠]. فحين تتنامى القوة المنتجة مع تطور الأفراد من جميع النواحي، وحين تتدفق جميع ينابيع الثورة الجماعية بفيض وغزارة، حينذاك فقط، يصبح بالإمكان تجاوز الأفق الضيق للحق البرجوازي تجاوزاً تاماً، ويصبح بإمكان المجتمع أن يسجل على رايته " **من كل حسب كفاءاته، ولكل حسب حاجاته** "[٩١]، مما يؤدي إلى إلغاء القلة الاقتصادية. وهكذا فإن المجتمع الشيوعي يوفر

---

(٨٧) ماركس انجلس لينين: **حول المجتمع الشيوعي**، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩، ص(٧).
(٨٨) المرجع السابق نفسه، ص(١٢٢).
(٨٩) مصطفى كامل سعيد وآخرون: **محاضرات في الاشتراكية**، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص(٢٢٥).
(٩٠) محمد سيد أحمد المسير: **المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه**، مرجع سبق ذكره، ص(٣٧٠).
(٩١) لينين: **الدولة والثورة – تعاليم الماركسية حول الدولة، ومهمات البروليتاريا في الثورة**، مرجع سبق ذكره، ص(١٢١).

لكل أفراد المجتمع الظروف الاقتصادية، التي تلبي ما يتطلع إليه الإنسان[٩٢]. فالعمل الحي في المجتمع الرأسمالي السابق ليس إلا وسيلة لإنماء العمل المتراكم. أما في المجتمع الشيوعي فليس العمل المتراكم إلا وسيلة لتفريج حياة الشغيلة وإغنائها وترفيهها[٩٣].

وفي النهاية يمكننا القول أن هذه السمات العامة قد لا تعلن مباشرةً عن أن الهدف الأساسي الذي تتجه نحو تجسيده هو الانسجام العام المترابط الجوانب، المتناسق الأبعاد. ولكن كل واحدة منها تضيف إلى هذا الهدف وتعززه من زاوية خاصة. كما أن هذا المجتمع سيكشف لنا أن حكومة الأشخاص لابد لها أن تعطي مكانها لإدارة الأشياء، التي ستصبح حقيقة ممكنة في مجتمع المستقبل (المجتمع الشيوعي). فماركس في واقع الأمر كان مقتنعاً بأن تطور قوى الإنتاج الذي وصف طبيعته وجدليته سيدفع دون أدنى شك إلى تحقيق مبدأ حلول إدارة الأشياء محل الحكم السياسي للناس، وهذا يعني أن المجتمع الشيوعي الجديد ينبئ بنهاية سلطة العبودية وظهور سلطة الحرية، ونهاية استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وظهور اتحاد تعاوني بين أفراد المجتمع الأحرار"[٩٤]. وبكلمة مختصرة يعتبر جوهر المجتمع الشيوعي الجديد كحل إيجابي – بالنسبة لماركس – هو تجاوز للملكية الخاصة ولنهاية الإيديولوجية،

---

(٩٢) محمد سيد أحمد المسير: **المجتمع المثالي في الفكر الفلسفي وموقف الإسلام منه**، مرجع سبق ذكره، ص(٣٧٠).

(٩٣) هرمان دونكر: **البيان الشيوعي – النص الكامل مع دراسة وتحليل**، مرجع سبق ذكره، ص(٨٤).

(٩٤) نديم بيطار: **التاريخ كدورات إيديولوجية- فكرة المجتمع الجديد في المذاهب السياسية والإيديولوجيات الحديثة**، مرجع سبق ذكره، ص(٢٢٨).

وتحقيق الفلسفة، وأنسنة الطبيعة، ووحدة النظرية والممارسة، ونهاية المجتمع الطبقي، والقضاء على الاغتراب الذاتي الإنساني، واضمحلال دور الدولة، وإلغاء التخصص في العمل، والندرة، كما هو أيضاً الحل النهائي للعداء بين الإنسان والطبيعة وبين الفرد والجماعة، لذلك كان المجتمع الشيوعي يعني بالنسبة لماركس التملك الحقيقي للماهية الإنسانية للإنسان ولأجل الإنسان، فالشيوعية هي لغز التاريخ محلولاً. وهي تعرف عن نفسها على أنها الحل[٩٥]. " عبر تجسيدها لمستقبل الإنسان المجرد من الحزن والآلام والاستغلال بإقامة حلم المدينة الفاضلة، التي تعبّر عن الإيمان بالآخرة المثالية "[٩٦].

---

[95] Eugene Kamenka: ***The Ethical Foundations of Marxism***, op.cit, p.(85).
[96] Betty A.Sichel: ***Karl Marx and The Rights of Man,*** Philosophy and Phenomenological Research, Vol: 32, No: 3, Mar - 1972, p.(385).